

الفصل الأول:

الإصلاح السياسي الشرعي عند الشيخ محمد رشيد رضا

د. محمد خرويات(*)

مقدمة:

تحتوي هذه المقدمة على تقديمين: الأول في الإشكال العام للموضوع، والثاني في بسط عناصر الموضوع.

التقديم الأول: الإشكال العام للموضوع:

الحديث عن السياسة الشرعية عند رشيد رضا هو حديث يجلي حقيقة الإصلاح السياسي في فكره، كما يجلي حقيقة السياسة الشرعية نفسها وذلك بإبراز خصائصها ومقوماتها ومقاصدها، ناهيك عن مصادرها ومراحلها التاريخية، وهذا كله أو بعضه هو الذي يكشف عن مرتكزاتها في إصلاح أمور البشر، ومع رشيد رضا تتبلور مفاهيم هذه السياسة، ويتحرك مجال التنظير لأمرها العامة لا سيما الأحكام الشرعية العملية التي تنتظر الحياة بسريرتها في واقع الأمة. ومن هنا فالحديث في هذا الموضوع هو الحديث عن كل شيء في دعوة الإصلاح عنده في فكره رحمه الله، حيث يذكره بمسميات متباينة على مستوى اللفظ لكنها لا تشير إلا إلى معنى واحد وهو المعنى الذي قصدناه بـ (السياسة الشرعية)، فتارة يسميه بـ "الإصلاح الإسلامي والهدي المحمدي"^(١) وتارة أخرى يسميه بـ "الشرع الإسلامي والإصلاح المحمدي"^(٢)، وأحيانا

(*) دكتوراه في علوم السنة النبوية، جامعة القاضي عياض، براكش، أستاذ بكلية العلوم والآداب، جامعة القاضي عياض.

(١) رضا، محمد رشيد، حقوق النساء في الإسلام، بتعليق ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ

/ ١٩٨٤م، ص ١٤٨.

(٢) المرجع السابق، ١٤٩.

يطلق عليه "الإصلاح المحمدي العظيم"^(١)، وأحيانا أخرى ينعته بـ "الإصلاح الإسلامي المحمدي"^(٢)، واقرب نعت إلى معنى مصطلحنا السابق هو النعت الذي استعمله في سياق كلامه عن العروة الوثقى التي استمد منها توجهه السياسي المباشر، والذي سماه بـ "الإصلاح السياسي العام"، يقول: "وأكبر أثرها عندي -أي العروة الوثقى- أنها هي التي وجهت نفسي في الإصلاح الإسلامي العام"^(٣).

عاش رشيد رضا في فترة عصيبة من التاريخ، فالخلافة الإسلامية المركزية في إستانبول تنهار شيئا فشيئا، والحكم العثماني قد تقهقر في الأقاليم والولايات، وبدأ الاستعمار يعم العالم الإسلامي كله، ومحاولة ابتلاع أرض فلسطين واغتصابها تسير بخطى حثيثة ومدروسة، وتخاذل الأمراء والولاة والحكام في القيام بالواجب قد عم وطم، وشاعت الدسائس والمؤامرات والخيانات، وتفاقم الوضع الداخلي بالحروب المستمرة التي غيرت من خريطة العالم الإسلامي. وكل هذه العوامل أدت إلى تبدد وحدة المسلمين وتششت كلمتهم وتمزيق جغرافيتهم التي كانت موحدة، وقد تبع هذا تغيير في العقليات، وتغيير في أحكام الإسلام، هذا هو الجو الذي تنفس فيه رشيد رضا، وهو جو مكنه من أن يعي موقعه كمصلح، وإنه ما وجد في داخل هذه الأزمة العارمة إلا للإصلاح، إصلاح الوضع الداخلي لمصر في صلة الشعب بالسلطة المحلية، وفي صلة السلطة المحلية والشعب بالاستعمار الإنجليزي، وفي صلة مصر بأطرافها كاملة بالسلطة المركزية في الأستانة، وفي صلة مصر بسائر الأقطار العربية التي تتحرك لأجل الانفصال كلبان وسوريا وغيرها.

(١) رضا، محمد رشيد، حقوق النساء في الإسلام، ص ٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٣) العدوي، إبراهيم أحمد، رشيد رضا الإمام المجاهد، المؤسسة المصرية العامة، ص ٧٧. ويسميه أيضا بـ "الإصلاح المحمدي العام"، وهو الموضوع في عنوان كتابه "حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام".

ثم هناك قضايا أخرى تبدو أكثر أهمية في وحدة الصف ولمّ الشمل وهي التأليف بين مكونات المجتمع المصري كفئات النصارى والمعلمين في المدارس التبشيرية، وفئات طلاب العلم فيها، وفئات طلاب العلم الشرعي في الأزهر، والتوفيق بين الفئة المسلمة التركية المتمردة على السلطنة العثمانية والفئة العربية المسلمة التي يخلص بعضها للسلطنة والبعض الآخر هو واقع في مهاوي الفئة التركية المتمردة. كل هذه قضايا باشرها من موقع الإصلاح؛ ولذلك ختم إحدى مقالاته في المنار بقوله تعالى من سورة هود: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(١) (هود: ٨٨).

التقديم الثاني: في عناصر الموضوع:

سنحاول في هذا البحث أن نجلي حقيقة الإصلاح السياسي العام عند رشيد رضا الذي يتم وفق مرتكزات السياسة الشرعية التي هو شيخ فيها^(٢)، وذلك من خلال بحث العناصر الآتية:

أولاً: المؤهلات التي ساعدته على خوض غمار الإصلاح السياسي، وهذه المؤهلات تبدو واضحة في عمله السياسي، إذ بدونه يقع التقصير في هذه الجهة أو تلك.

ثانياً: مجلة المنار التي أطل بها على الواقع بعين الفحص والسير، ودورها في إيصال كلمة "الإصلاح" إلى العقول والقلوب، وسيبقى رشيد رضا حياً في ساحة الإصلاح ما بقيت مجلة المنار.

ثالثاً: موقعه من الظاهرة الإصلاحية العامة، فرشيد رضا هو امتداد طبيعي لجهود سابقة، وصوته في الإصلاح السياسي هو جزء من أصوات كثيرة ومتعددة الاتجاهات والمشارب، فلا بد من تحديد موقعه منها، وبيان موقفه من تبايناتها واختلافاتها.

(١) المنار، مج ١٢، ج ١٢، يناير، سنة ١٩١٠، مقال بعنوان: "العرب الترك: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا".

(٢) (شيخ) هنا هي بالمعنى العلمي الشرعي في اصطلاح أهل الأصول والفقه.

رابعاً: ما هي السياسة الشرعية التي خاض غمار الإصلاح السياسي من منظورها؟ ما درجة علمه بها وفقهه فيها؟ كيف زاد عن حوضها؟ وكيف عالج سلبات العاملين في حقها..؟ الجواب عن هذه الأسئلة يتضمنه هذا العنصر الذي يوضح المقاصد التي نرمي إليها في بحث الموضوع.

خامساً: شمولية الإصلاح عنده وعموميته، وهما عنصران من عناصر الشريعة الإسلامية، وخاصيتان من خصائصها، ومن خصائصها على الحملة العناية بالضرورات الخمس التي تتحدد في المحافظة على النفس والعقل والدين والنسل والمال، لذلك فجّل القضايا التي دعا إليها في إصلاحه السياسي تدخل في الضرورات الخمس.

سادساً: السياسة التي تكلم فيها هي السياسية العامة، السياسة التي لا تستثني قضية من القضايا سواء أكانت محلية أم عالمية، داخلية أم خارجية.. غير أن الكلام في سياسة من هذا النوع يتطلب الحكمة والبصيرة، وهذه هي التي تضفي على الفكرة السياسية طابع التوازن.

سابعاً: الموضوعات السياسية التي تكلم فيها، وهي موضوعات تدل على صلته بالواقع، وحسن فقهه لقضاياها، فالموضوعات هي من صميم مشاكل الأمة في ذلك العصر مثل: الخلافة والشورى والثورة والاشتراكية، وهناك موضوعات أخرى كثيرة مثل الربا والتجارة والثروة والمال والدعوة إلى إصلاح التعليم واللغة العربية بما فيه وضع المدارس التبشيرية الحرة وقضية حقوق المرأة والصحافة.. لكننا عدلنا عن الكلام فيها وأبقينا على ما له صلة بـ"الإصلاح السياسي".

المبحث الأول - مؤهلاته في العمل السياسي:

هناك مؤهلات ساعدت رشيد رضا على شق طريق الإصلاح العام، وأثرت في وجهه الفكري السياسي الشرعي، نذكر منها سبعة مؤهلات، وهي كالآتي:

١ - نسبه إلى آل البيت، فهو ينتمي إلى فرع الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان يلقب نفسه "الحسيني"، ومعلوم أن أصول السياسة الشرعية إنما تمتد في سنة النبي وآل بيته الأطهار وصحابته الراشدين الأخيار، وهذه ميزة انعكست على أسرة رشيد رضا التي اشتهرت بالرئاسة الدينية، فقد عهدت رئاسة بيت "آل الرضا" إلى والده علي الرضا، وهذا يجلي حقيقة أخرى وهي أن دعوته إلى الوحدة بين المذهبين الشيعي والسني إنما تمت من موقع جدارة انتسابه إلى أصول المذهبين.

٢ - ورثت أسرته -أباً عن جد- المتزلة الرفيعة، وحب الكرم وحسن الضيافة ولطافة الاستقبال، كما ورثت الهيبة والتقدير والاحترام والشرف عند السلاطين وولاة الأمور، فقد عاصر عصر السلطان العثماني وحيد الدين خان الذي كان يبعث إليه براءات، وهذه البراءات السلطانية تسلسلت من سلاطين بني عثمان إلى آل بيت رشيد رضا، كان آخرها البراءة السلطانية لوحيده الدين التي كانت قبل الحرب العامة^(١).

٣ - العلم الشرعي الذي ضرب فيه بسهم وافر، فقد كان رحمه الله جامعاً لعلوم الشريعة كلها، يجدر بنا أن نشبهه بعابرة الإسلام الكبار من أمثال الشافعي والغزالي والسيوطي وابن تيمية وابن القيم.. ومعلوم أن من لا حظ له من علوم الإسلام الأساسية لا حظ له في إصلاح الأمة وتوفير رغباتها والتعبير عن حاجاتها الكبرى.

٤ - التقوى والورع والزهد وكرم النفس والعزة والإحجام عن المعاصي والإقدام على فعل الخير، لا نعلم -في حدود ما نعلم- أن أحداً غمزه في أخلاقه، أو تكلم في ورعه وتقواه.

(١) أرسلان، شكيب، السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة، دمشق، ١٩٣٧، ص ٢٤.

٥- التفتح والتسامح، وهما دعامتان أساسيتان للسياسة الشرعية، فأية سياسة ليست متفتحة هي سياسة مغلقة على نفسها، لا تجني من انغلاقها سوى العصبية والعرقية والمركزية، وأية سياسة ليست متفتحة فهي عدوانية وقاتلة، ولا يمكن لأية سياسة هذا نوعها أن تحيى في الوجود. وإذا كانت هذه خاصية من خصائص السياسة الشرعية فهي خصلة أساسية في المفكر الإسلامي السياسي، وكان رضا على هذه الخصال، يبين لنا ذلك فيقول: "إنني منذ دخلت سن التمييز أرى في دارنا وجهاء النصارى من طرابلس ولبنان، بل أرى فيها القسوس والرهبان، ولا سيما في أيام الأعياد، وأرى الوالد يجاملهم كما يجامل من يزوره من الحكام ووجهاء المسلمين، ويذكر ما يعرف من محاسنهم في غيبتهم بكل إنصاف، وقد كان هذا من أسباب دعوتي إلى التساهل والوفاق وتعاون جميع أهالي البلاد"^(١).

٦- سعة اطلاعه على المصادر الأجنبية، وهذه المصادر ما كان فيها مفيدا أقره وبنى حكمه عليه، وما كان مخالفا للمعقول والمنقول ردّه وعلق عليه^(٢)، نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتاب "الخلافة" لسير ويليام موير المطبوع سنة ١٩٢٤م وهو المصادف لسقوط الخلافة في تركيا، وكتاب "الإسلام"، للأستاذ أوجيست مولر^(٣)، وكتاب "محمد وخلفاؤه"، للأستاذ واشينجتون إيفرنج^(٤)، وغير ذلك، ومما هو جدير بالانتباه هو أنه كان يطالع بعضها باللغة الإنجليزية.

٧- تأثره في الفكر السياسي برجلين كان لهما أثر كبير في حياته السياسية، هما:

(١) العدوي، رشيد رضا الإمام المجاهد، ص: ٢٢. التساهل الذي يذكره الشيخ هنا ليس من النوع الاعباضي ولا الوفاق من النوع السليبي، وذلك أن دليله في التساهل ومرشده إلى الوفاق هو الشرع وأحكامه.. فبقدر ما كان متساهلا ومتساعحا وداعيا إلى التأليف والوفاق بين الأديان كان مناظرا لهم بالحجة الشرعية، فاضحا لشبه النصارى وعقائدهم المدخولة، وقد ألف في تقديم كتابا بعنوان: "شبهات النصارى وحجج الإسلام"، صدر عن مطبعة نضة مصر - الطبعة الثالثة - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

(٢) راجع ردوده على المستشرق "موير" في كتابه: "أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين"، دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة ١٩٨٣م، ص ٧٥ و ١٣٩.

(٣) "أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين"، ص: ١٩٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣.

أ- جمال الدين الأفغاني: (١٨٣٨م - ١٨٩٦م)^(١)، هذا الرجل شغف برأيه وأحبه حبا شديدا وإن لم يره، و معلوم أن توجه هذا الأخير هو التوجه السياسي التي تمثل في المسائل الآتية:

١- بث الروح الإسلامية في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه وتنقية عقيدته من الخرافات، وتحرير أخلاقه مما علق بها من الرذائل والأمراض مع استعادة العزة والكرامة.

٢- إصلاح حال الدولة القائمة أو الثورة عليها إذا اقتضى الحال وإن كان الخيار الثاني هو الخيار المفضل خيار الثورة لأجل التغيير.

٣- مناهضة الاحتلال الأجنبي حتى يعود الاستقلال إلى الأقطار الشرقية، وعلى الدولة العربية أن ترتبط فيما بينها برباط ما لتتحدى الأخطار المحدقة بها^(٢).

لقد عرف جمال الدين باهتمامه بالسياسة وبالعامل السياسي أكثر من أي اهتمام آخر، وقد وصفه بذلك تلميذه ورفيقه في الكفاح محمد عبده فقال: "وكان قادرا على النفع العظيم بالإفادة والتعليم، لكنه وجه كل عنايته إلى السياسة فضاع استعداده هذا"^(٣).

ب- محمد عبده: (١٨٤٥م - ١٩٠٥م)^(٤): يقولون إن توجه محمد عبده إنما هو توجه إلى الإصلاح التعليمي والتربوي فحسب، وهذا غير صحيح، فتوجهه إلى التربية والتعليم إنما جاء من الإصلاح السياسي الذي قضى فيه عمرا طويلا بصحبة شيخه

(١) الصعدي، عبدالمعال، المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر، ترجمة الأفغاني، مكتبة الأهرام، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٣٧٣-٣٧٠.

(٢) أمين، أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت، دار الكتاب العربي، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) دربنقة، محمد أحمد، السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٩٨٦م، ص ٢٦.

(٤) "المجددون في الإسلام"، للصعدي، ترجمة محمد عبده، ص ٣٩٩-٤٠٥.

الأفغاني، وكان يصدر معه مجلة "العروة الوثقى" التي تضمنت دعاوى كثير في الإصلاح السياسي^(١)، وعن طريقها تعرف رشيد رضا على حقيقة هذا الإصلاح، غير أنه لم يشرع فيه عملياً إلا بعد موت شيخه محمد عبده الذي غير توجهه الإصلاحي في المراحل الأخيرة من عمره، وبالضبط لما دخل القاهرة عام ١٨٨٣م.

وكان الإصلاح السياسي عند عبده من الأولويات التي رسخها فيه الأفغاني، تمثل هذا الإصلاح في المجالات الآتية، وهي المجالات الحيوية في هذا العصر:

١ - الاشتراك في الثورة العربية ودعمها، بل كان من كبار زعمائها، وبسببها كان من المغضوب عليهم، غير أن الخديوي صفح عنه لما عاد إلى مصر لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق.

٢ - محاربة الاستعمار الإنجليزي، وهذه المحاربة تتمثل في التحريض السياسي ضد تواجدته فوق الأراضي الإسلامية، وكانت العروة الوثقى منبرا لكل هذه الأنشطة.

لكنه وبعد تجربة مريرة عاشها، غير خطه الإصلاحي كلياً، حيث رأى ما هو أجدر بالإصلاح وأنفع وهو الإصلاح التعليمي والتربوي، وهناك قال قولته المشهورة (أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر في بالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم السياسة، أو يحب أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس)^(٢).

(١) صدر العدد الأول من "العروة الوثقى" في ١٥ من جمادى الأولى ١٣٠١ هـ/ ١٣ مارس ١٨٨٤، مديرتها

المسؤول هو جمال الدين الأفغاني، محررها الأول هو محمد عبده، أعاد طبعها وإخراجها المجلس الأعلى

للشؤون الإسلامية، القاهرة، العدد الأول عام ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

(٢) رشيد رضا الإمام المجاهد، ص ٢١٦-٢١٧.

كانت هذه جملة من المؤهلات ساعدت رشيد رضا بشكل أو بآخر على ولوج العمل الإصلاحي في صيغته السياسية التي تنبني على شرع الإسلام، ولم تكن فكرته الإصلاحية سوى مظهرا من مظاهر تأثير الواقع الذي عاش فيه، غير أن هذا التأثير لم يصل إلى حد الانحراف مع سلبات الواقع ومشاكله، بل وقف منه الموقف الذي كان ملائما ومتلائما مع منحاه الإسلامي، والطبيعي أن ينتظر المسلمون من رجل كهذا إنارة الطريق المظلمة بالجهل والظلم والفساد، وتوجيههم نحو سبيل الفلاح والرشاد، ويمكن للباحث -لأي باحث كان- أن يقر بحقيقة واضحة وهي أن الشيخ رحمه الله كان على اطلاع تام بمختلف التيارات الفكرية والأنظمة السياسية القائمة، واعيا برغبات الأمة نحو الخير والسعادة. ومما زاد من توسيع أفقه السياسي أنه كان على دراية بطرق الفساد وأوجه الضلال التي استشرت سموها في جسم الأمة.

المبحث الثاني- المنار ودورها في الإصلاح السياسي:

في الوقت الذي عاد فيه محمد عبده إلى مصر بنفَسٍ جديد في الإصلاح، وبطريقة مختلفة عن المرحلة السابقة، نرى تلميذه رشيد رضا يعقد العزم على الهجرة إلى مصر ليؤسس مجلة يبدأ من خلالها إصلاحاته العامة، هكذا دخل رضا مصر قادما إليها من بيروت بتاريخ ٨ رجب من سنة ١٣١٥هـ الموافق ٣ يناير من عام ١٨٩٨م، وهذا تاريخ ملائم لبداية العمل السياسي، حيث صدر في السنة نفسها -في ١٥ مارس- العدد الأول من مجلة "المنار" بمباركة محمد عبده وبمساعده، ومكثت من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٠٥م تُؤلَّى أمرها إلى "الإصلاح الديني"؛ لأن الأستاذ الإمام كان حريصا على عدم تدخل الجريدة في السياسة مباشرة^(١)، في سنة ١٩٠٥م توفي محمد عبده، فانخرط رضا بعدها في العمل السياسي العام، ومما زاد من تقوية عزميته أن صدى حركة (تركيا الفتاة) بدأ يتسع إلى الخارج، فبادر رضا إلى تأسيس جمعية (الشورى

(١) لكننا نراه من صميم العمل السياسي الشرعي، لأن السياسة التي كان عبده حريصا على عدم طرقها هي من النوع الذي تكلمنا عليه في العنصر السابق، انظر (مؤهلاته في العمل السياسي).

العثمانية) التي مكنته من إصدار مقالات في الاستبداد وسياسة السلطان عبد الحميد وحكم الشورى وطرق إصلاح الدولة العثمانية.

وعمرت المنار عمرا يناهز سبعا وثلاثين سنة، من سنة ١٨٩٨م إلى عام ١٩٣٥م، وهو عمر ظهرت فيه أحداث سياسية جسام كان أكبرها انقيار الإمبراطورية العثمانية والقضاء على خلافتها، وظهور الثورة البلشفية الاشتراكية الشيوعية في روسيا التي قضت على النظام القيصري المستبد والمعتدي على حدود الإمبراطورية الإسلامية، وما جرى بين حركة نجد وحركة الحجاز حول تولي الزعامة على مقدسات المسلمين وتدخل الاستعمار الإنجليزي في المنطقة، وبروز ظاهرة الانفصال التي استفحلت بشكل ذريع في العالم العربي وفي شرق أوروبا، وظهور ظاهرة القومية العربية التي تنظر لمستقبل الدولة الوطنية في العالم الإسلامي على الصيغة العلمانية التي أسس دعائمها مصطفى كمال أتاتورك^(١). وهذا كله كان يخلف في المجتمع الإسلامي آفات أخلاقية خطيرة، وعلا وأمرضا فتاكة كلها كانت تتجاوب مع الوضع السياسي العام، وكانت مجلة المنار تواكب هذه المشاكل وتتصدى لها بروح علمية وإيمانية وجهادية عالية، ويخطئ من ينظر إليها على أنها مجلة دينية إصلاحية فقط، بل هي -علاوة على ذلك- فكرية سياسية ناثرة على الوضع، تمارس السياسة بمعناها العام ومن منظور السياسة الشرعية التي دخلها رضا من أفق الفهم الفقهي المتميز، وهي بخلاف (العروة الوثقى)؛ لأن العروة الوثقى كانت تخاطب الشعب من الخارج في حين كانت المنار تخاطبه من وسط مشاكله الحية والحيوية، ومما زاد من تألقها أن صاحبها كان عالما بشؤون جزيرة العرب وشؤون أمرائها، وعارفا بظاهرة الحركات العربية بأحوالها وأحزابها وجمعياتها، كما كان واسع المعرفة بأحوال الدولة العلية وما يراد لها من الداخل والخارج، وهذا ما تدل عليه مقالات رشيد رضا في المجلة. والواقع أن مجلة "المنار" هي رشيد رضا، فكل فكره الإصلاحي موجود في هذه المجلة، وكل ما ألفه من كتب مستقلة إنما يوجد كثيره

(١) خروبوات، محمد، "الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في التدافع الحضاري"، مطبعة إيباج، البيضاء، ١٩٩٨، ص ٩٦-٩٧.

أو بعضه في المنار^(١)، والسبب في ذلك أن المنار ارتبطت بعمر صاحبها فقد توقفت لما توقفت حياته، والفضل يرجع إليه في أنه بهذه المجلة وقف صومعة عالية تخرق حجب السماء الملبدة بغيوم التعقيم الإعلامي والتمويه على الحقائق، وقد وقفت المنار في وجه الصحافة التركية الداعية إلى الانفصال عن العرب وتمجيد القانون الأوربي وإيقاف الاستبداد السلطاني، كما كانت جرائد أخرى في البلاد العربية المشهورة بحرية الصحافة كمصر وسورية تحرك أقلامها لهذا الغرض، وكانت المنار تقف حائلاً أمام كل تلك الدعاوى والحقائق المزيفة، لكن بالحجة والدليل وبصيغة مرنة مقبولة حتى وصفت بأنها "لسان حال الإصلاحيين المعتدلين"^(٢).

المبحث الثالث - موقعه من الظاهرة الإصلاحية العامة:

لم يكن رشيد رضا هو الذي يتكلم وحده عن الوضع السياسي العام للأمة، بل راح المثقفون يتكلمون من مختلف الاتجاهات، فالمسيحيون العرب ينظرون للحالة السياسية العامة والقوميون العرب من المسلمين يتكلمون، والأتراك يخططون لمشروع القومية التركية التي اتخذت من العلمانية طريقاً سياسياً جديداً لها، والدولة الوطنية تتكلم عن التحرر بطريقتها وبأسلوبها وبمقاصدها الخاصة التي تحفظ لها البقاء والاستمرارية، والمستشرقون يحللون الوضع بطريقتهم الاستعمارية ومنهجهم الانتقائي المشوه والكل يتكلم، أما المخلصون من أبناء الأمة، الراغبون في الإصلاح على الطريقة الشرعية مثل الأفغاني وعبدو ورضا وأحمد خان في الهند فلهم تصور مختلف للوضع.

يمكن القول إن مرحلة ما قبل سنة ١٩٠٨م كانت فيها آراء الشيخ رشيد رضا تتماشى مع آراء محمد عبده ومواقفه، وهي: مهادنة الاستعمار والانتفاع بمعطياته المادية والحضارية، وهذا الموقف يشكل نقطة افتراق عن الخط السياسي الإصلاحي

(١) غالباً ما كان يصنف رسائله باقتراح من أخيار الناس الذين لهم غيرة عن الدين وعن الإسلام والمسلمين، وقد بين ذلك بنفسه في مقدمة بعض رسائله، انظر مقدمة كتابه "حقوق النساء في الإسلام"، ص ٤.

(٢) كوثراني، وجهه، مختارات سياسية من مجلة المنار، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٦.

الذي رسمه جمال الدين الأفغاني من قبل، ذلك أن مشروع هذا الأخير كان مشروعاً سياسياً إصلاحياً بالدرجة الأولى، أما رشيد رضا فقد كانت نظريته إلى الإصلاح نظرة عامة، نظرة تأخذ بعين الاعتبار حتى النظرات الإصلاحية الأخرى، وتستنبط الإيجابي من تلك المواقف وتترك السليم، وقد مكنته هذه الطريقة من أن يقف على حقيقة الدعوات الإصلاحية سواء في مصر أو في خارجها، يدلنا على ذلك الموازنات التي كان يعقدها بين الجهود الإصلاحية لرواد الإصلاح السياسي في عصره كموازنته بين جمال الدين الأفغاني والسيد أحمد خان في الهند^(١)، وبين هذا الأخير ومحمد عبده^(٢)، كل ذلك لأجل اختيار طريق سليم وصحيح، وهو الطريق المركب من إيجابيات المرحلة السابقة.

إن العمل السياسي هو عمل غير كاف في الإصلاح؛ إذ لا بد من إصلاح التعليم والتربية والتوجه إلى إصلاح عيوب المجتمع. وهذه القضايا أهمل منها الأفغاني الشيء الكثير، في حين كان أحمد خان في الهند يوازن في دعوته بين السياسي والتربوي والثقافي والتعليمي وحتى الاجتماعي، لذلك فاق جمال الدين الأفغاني في هذه الأمور وإن فاتته جمال الدين في السياسة، وأعتقد أن عزوف محمد عبده عن السياسة في آخر أيامه يأتي من إحساسه بنقطة الضعف في دعوتهما (هو والأفغاني) طيلة تلك السنين، وهو أن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى إصلاح تعليمي وتربوي أكثر، وأن العمل السياسي إذا كان بإفراط يمكنه أن يحرق أوراق الإصلاح كلها لما فيه من المخاطرة بالنفس والنفس، وهذا ما مثلته نهاية جمال الدين الأفغاني على هذه الصورة تماماً، وكادت نفس الصورة أن توقف مسار عبده لولا أنه غير المنهج حيث بدأ يرى في الاستعمار نظرة أخرى وهي عوض الحرب والجفاء للذين لن يعطيا شيئاً يمكن أن يكون هناك تعاون جاد ومسؤول يعود على أفراد المجتمع الإسلامي بالنفع، وهنا يتحول (الاستعمار) إلى أداة مُسخّرة في الإصلاح، ولقد أدرك عبده بنظرته التي

(١) كوثراني، وجهه، مختارات سياسية من مجلة المنار، ص ٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

خضعت لتجارب عديدة أن الحرب والثورة على الاستبداد الداخلي والخارجي أداتها الشعب، جميع أفراد الشعب، وهؤلاء ليسوا في مستوى من العلم والوعي والتربية التي تؤهلهم لخوض غمار الثورة لتغيير الوضع، فلا بد إذا من تربيتهم وتوعيتهم وتنوير فكرهم.. وكان هذا هو السبب الذي جعل الشيخ رضا يميل ميلاً عظيمة عن السياسة ويصدر بحقها ما كنت رأيت.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا لماذا شاطر رشيد رضا محمد عبده في عزوفه عن السياسة؟ وهل السياسة التي ولّى رشيد رضا ظهره عنها بصحبة شيخه هي كل السياسة أو هو عزوف عن جزء منها فقط؟.

وجوابه أن رشيد رضا في هذه المرحلة كان حديث العهد بصحبة محمد عبده، وكان محمد عبده هو الموجه والمدير لأفكار الإصلاح، وهذا يبين أن رضا كان تابعاً لشيخه في كل شيء، ومن جهة أخرى فإن السياسة التي عدلها عنها هي السياسة التي تتعلق بقضية الاستعمار وصلته بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية داخل البلاد، وكذلك في صلته بالسلطة الحاكمة، فكأن رضا يريد أن يفسح المجال للسلطان ليقوم بمهمته، ذلك أنها مهمة تعلو الشعب، وحتى الاستعمار ليس مهيناً لأن يتحاور ويتذكر مع أي طرف كان سوى أن يأتي من جهة السلطان أو من قبل جهة لها وزن سياسي وشعبي، وكل محاولة تخرج عن هذا الإطار فإنها عرضة للسحق، إما من جهة السلطة الداخلية التي لا تسمح بمشاركة أحد في محاورتها مع الاستعمار، وإما من جهة الاستعمار الذي لا يسمح لأي كان أن يكون وصياً عن الشعب وعلى السلطة المحلية، وكيف يسمح وهو لا يعترف حتى بشرعية السلطة القائمة في البلاد، لذلك كان رضا يرى أن الإصلاح "لا يمكن القيام به إلا باتقاء السياسة فيه، واجتناب مقاومة السلطة به، ويجعل مداره على تربية النفوس بالدين، وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي

وترك السياسة لأهلها"^(١). ويُفرض علينا في هذا المقام سؤال أكبر من سابقه وهو:
ما هي السياسة التي تركها رضا لأهلها؟

لا شك أنها السياسة التي تخص أهلها، السياسة التي لا مدخل لرضا ولغيره فيها،
لكن هناك سياسة أخرى يعرفها رضا ويجيدها وهي السياسة التي يتوجب عليه أن يقوم
بها، ويدعو الناس من خلالها ويياشر الإصلاح من موقعها، هذه السياسة هي السياسة
الشرعية التي جاء بها دين الإسلام، والتي تصلح للبلاد والعباد، وبدونها يقع الخلل
ويحصل الفساد، وهذا النوع من السياسة لا يجيده اللورد كرومر ولا تعرفه السلطات
الاستعمارية ألبتة، كما أن السلطة القائمة وإن كانت تعرفه -بحكم انتمائها إلى
الإسلام- فإنها تحبذ الدعوة إليه لا العمل به.. وهذا فيه إجابة واضحة للذين عاينوا
إصلاح رضا من مواقع خاصة، أولئك الذين رأوا في نبذه للسياسة واعترافه بحالة
الاستعمار عملية احتواء وتوافق، واتكالية مع استقبال مريح (للغرب الرأسمالي في
الشرق العربي)^(٢).

كان رشيد رضا يدرك أطماع الغرب ومشاريعه في المنطقة، وأيديولوجياته التي
يريد اكتساح القيم الإسلامية بها، وكانت طموحات الاستعمار تظهر لرضا في
مسألتين:

- الأولى: في مصالحه السياسية والاقتصادية والثقافية التي يجنيها من تواجده في
المنطقة. وإدراك هذه الرغبة، والوقوف عند حدودها يتطلب الوعي بحالة العالم في
ذلك الوقت، أي أن يكون المرء على حالة من الوعي السياسي العالمي، وكان رضا
على معرفة تامة وجيدة بذلك.

(١) مجلة "النار"، مجلد ٩، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) كوثراني، وجيه في "مختارات سياسية..." انظر ص ٢٦، وص ٣٣، والخاتمة .

- الثانية: في متطلبات أحوال الداخل، وتحقيق رغبات المستعمرين، مثل التعمير والتحضير والتمدن وبناء المدارس والمستشفيات والإصلاحات الاجتماعية الداخلية، وكان رشيد رضا يدرك أن هذه الإنجازات التي يقوم بها الاستعمار ما هي إلا وسيلة لتحقيق الرغبة الأولى.

وحيال هاتين المسألتين انقسمت الفئات الداعية إلى الإصلاح إلى أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تمثلها السلطات الاستعمارية، وهذه السلطة لها حكم معين، وهي تبشر إصلاحا من نوع معين يضمن للغرب مصالحه وأمنه للتواجد على أرض الواقع.

الطبقة الثانية: وهي الطبقة التي انبهرت بالتقدم الحضاري للغرب، وغالبيتهم تعلموا في المدارس الحديثة التي أنشأها الإقامة العامة، وهؤلاء كان رشيد رضا يسميهم "المتفرنجين" ولا تربطهم بترائهم أي رابط عاطفي، بل كثير منهم يجهل حقيقة "الإسلام" و "الشرعية الإسلامية" و حقيقة "الثراث والتحرر"، ويرجع الفضل لهذه الفئة في تكوين تيار الفكر الليبرالي العلماني الذي تمثل أيديولوجية الغرب حتى النخاع، فراح يقدم في ساحة الإصلاح عنصر الاندماج مع الأفكار السياسية الوضعية التي أنتجها الغرب، بل ناضل من أجل تبنيها وترسيخها ومحاربة ما يحول دونها، ونذكر من هؤلاء مثلا فارس نمر وفرح أنطوان وشبلي الشميل واللائحة تطول، وقد اتسع رواد هذا المذهب في السنوات التي تلت هذه المرحلة.

الطبقة الثالثة: وهي طبقة السلطة الحاكمة في البلاد، التي لها رغبة في استمرار الحكم على الطريقة الاستبدادية، وهذا كله لأجل بقاء السيد الحاكم الذي يرعى مصالحه ومصالح شبكة من المصلحين النفعيين، وهذه الطبقة مطامح وأيديولوجيات معينة فهي تتخذ من القواسم المشتركة بينها وبين الشعب، كالتقاليد والأعراف والدين والمحافظة على الوطن، أداة لخداع الرعية، ومن خلال تسييرها للشؤون الداخلية عبر الوظائف الرسمية التي تحت سيادتها تكرر مفاهيم معينة يراد لها أن تكون ثابتة

ومركزية.. بل غالبا ما تضحى بمصالح الشعب لفائدة مصالح الاستعمار، يدلنا على ذلك أنها كانت سببا في دخول الاستعمار.

الطبقة الرابعة: إذا نحن عرضنا سلبيات الطوائف السابقة تبين لنا أن الإصلاح الحقيقي (الإصلاح العظيم) كما يسميه رشيد رضا، لا يمكن أن يتم من خلالها وحدها، فنوايا الاستعمار واضحة تدل عليه ممارساته النظرية والعملية في البلاد، ومصالح الطبقة الحاكمة -التي لها تحكم نسبي في الوضع- لا تعكس الإصلاح المرتقب، أما الطائفة الخليفة للغرب فالإصلاح معها يذوب وينحل، لأنها -كما يقول: "لا قيمة لها في نفوس السواد الأعظم لبعدهم عن الدين"^(١). غير أن الجدل كان حادا بين فئتين:

- فئة ترى أن الإصلاح السياسي يأتي من جهة الطبقة الحاكمة في البلاد، فالإصلاح لا تقوم له قائمة في نظرهم إلا بالاعتماد على الأمراء والسلاطين والحكام.

- وفئة ترى أن الإصلاح السياسي ينبثق من القاعدة لا من القمة؛ لأن القمة في نظرهم هي سبب الفساد فلا يعول عليها في الإصلاح.

غير أن رشيد رضا أدار وجهه على هذا الخلاف واختار التوفيق، حيث رأى أن إصلاح الحكام لا يكون إلا إذا كانت الأمة متعلمة ومهذبة، وإذا تهذبت الأمة وتعلمت تهذبت جميع فصائل المجتمع ومكوناته بما فيه الحكام، لذلك فهو يدير وجهه جهة الذين شعروا بمصائب المسلمين ليقوموا بواجبهم أحسن قيام، بمن فيهم رجال الإصلاح، وهؤلاء هم أهل الطائفة الرابعة، ثم يتوجه إلى رجال الحكومة فيتهمهم بالإثراء غير المشروع على حساب الشعب الفقير، ودعوته إليهم أن يقوموا بمحاربة الرشوة والفساد المسيطرين على الدوائر الحكومية، وطالب الحكومات وحث الجمعيات على القيام بسائر أعمال البر والإحسان^(٢)، يقول في عبارة جامعة: "لا بقاء

(١) مجلة "المنار" مج ٦، ص ٢-٣. ومج ١١، ص ٧٣٨.

(٢) المرجع السابق، مج ١٣، ص ٣٤٨.

مع ظلم وفساد، ولا عدل مع استبداد، ولا هلاك مع إصلاح، ولا إصلاح للدولة إلا بصلاح الأمة، ولا صلاح لأمة إلا إذا كان فيها بقية من أولي الرأي والعزم، يأمرون بالصلاح وينهون عن الفساد في الأرض، ولا تأثير للأمر والنهي إلا بإجماع الأمر وإحكام الرأي، ولا يفيد الإحكام والإجماع مع مراعاة سنن الاجتماع لاختلاف استعداد الأقوام باختلاف أحوال الزمان والمكان، وزماننا هذا هو زمان الجماعات العلمية والأدبية والسياسية، والشركات الزراعية والصناعية والتجارية، ومتى ملكت الأمة بالجمعيات أمورها المعنوية وبالشركات أمورها المادية كانت جديرة بأن تقوم أمر حكومتها وتقيمها على صراط شريعتها"^(١).

إن أفضل طريق للإصلاح هو الإصلاح السياسي الذي تتعاون فيه القمة مع القاعدة حيث يشترك الجميع في إصلاح واحد، لأنه متى كان الإصلاح في جهة واحدة كان ناقصا، "فالحكومة تملك القدرة على إلزام الأمة بالإصلاحات، وصلاح الأمة يؤدي إلى صلاح الحكومة لأن الصالح لا يختار إلا مثله"^(٢).

وإذا كان رشيد رضا وقف بين الفئة الموالية للحكومة والفئة المعادية لها والموالية للشعب على النحو الذي عرضنا فقد وجدناه يوفق بين فئتين إصلاحيتين مختلفتين:

- إحداهما موالية للاستعمار وللدولة الوطنية الغربية وتريد أن تجري الأمور على ما عليه حالة الدولة في الغرب.

- والثانية تعادي الغرب مطلقا، وتريد من الإصلاح أن يكون من الداخل، يسير وفق الخصوصية والذاتية والمقومات والثوابت، وغالبية هؤلاء هم من العامة .

وحاول رشيد رضا أن يجمع بين الرأيين في رأي واحد تمثله طائفة واحدة أكد على ضرورة وجودها في حل الخلاف فقال: "لا بد من حزب وسط بين العامة و بين

(١) مجلة "المنار"، مج ١٧، ص ٧.

(٢) درنيقة، محمد أحمد، "السيد محمد رشيد رضا"، ص ٤٨.

المفترنجين يكون له جانب إلى النظام والمدينة وجانب إلى الدين النقي"^(١)، فجانب "النظام والمدينة" يتمثل في إدخال النظم الغربية، وأساليب الحضارة وطرق التسيير ووسائل التنظيم في الإصلاح الإداري، فالإسلام والحضارة صديقان يتفقان ولا يختلفان^(٢)، وجانب "الدين النقي" يتمثل في الالتزام بالشرعية الإسلامية في الحكم السياسي، وتسيير شؤون العباد بها، فأحلالها في واقع الأمة هو حياتها، وإغاؤها هو إبعاد للإسلام عن أرض الواقع.

وهكذا يرتفع صوت رشيد رضا في سماء الإصلاح العام ليكون خير ممثل لهذه الطائفة التي أسس لها جمال الدين وأتمها محمد عبده، وأكملت مع رشيد رضا، طائفة تتلاقى سلبيات الدعوات الأخرى لتعمل وفق الإيجابيات، ومن إيجابياتها: الاعتدال والتوازن والمرونة والعلم والتخطيط، كلها عناصر قابلة لأن تبحث من خلال جهود رشيد رضا في الإصلاح، لو جمعت وبحث لبرهنت على أن رشيد رضا يمثل في طبقته هذه التيار السياسي العقلاني الشرعي.

المبحث الرابع - فقهه السياسي الشرعي:

ونعرض فيه للقضايا الآتية:

- ١ - الفقه السياسي الشرعي.
- ٢ - رشيد رضا: الفقيه السياسي.
- ٣ - نقده للتعصب المذهبي.
- ٤ - دعوته إلى الوحدة بين المذهبيين: السني والشيعة.

(١) "المنار"، مج ٩، ج ٤، ص: ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) للتوسع في هذه النقطة راجع خروبات، محمد، "الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في التدافع الحضاري".

وفيما يلي بسط الكلام على هذه القضايا.

١ - الفقه السياسي الشرعي:

الفقه السياسي الشرعي هو عمدة السياسة الشرعية، والسياسة الشرعية تقوم على حسن فهم حقيقة الشرع وحسن إنزاله على الواقع، ثم حسن الإدراك لما يترتب على هذا الإنزال من مآلات وقضايا^(١)، وهذا كله لا يخرج عن "إقامة الحق والعدل، وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج به الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق: أسباب ووسائل لا تراد لذواتها وإنما المراد غايتها التي هي المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقا من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها، وهي يظن بالشرعية الكاملة خلاف ذلك؟"^(٢).

والسياسة الشرعية مصطلح جرى استعماله عند أئمة الإسلام، وقد صنفوا فيه مصنفات كثيرة^(٣)، وأقوى من حاول تحديد معناه تحديدا عاما العلامة ابن قيم الجوزية في مؤلفه "إعلام الموقعين" فقد وضع فصلا بعنوان: "كلام الإمام أحمد في السياسة الشرعية" ساق فيه مجموعات روايات للإمام تخص بعض الأحكام الفقهية كـ: المخنث أو حبسه، وإقامة الحد على شرب الخمر في رمضان، ومعاقبة من سب الصحابة ومن أسلم وتحتة أختان أجبر على إحداهن، ثم انتقل إلى الإمام الشافعي فذكر أشياء من فقهه في مثل هذه المسائل مثل جواز وطء الرجل المرأة ليلة الزفاف وإن لم يرها ولم يشهد عدلان على أنها امرأته بناء على القرائن، وذكر في مثل هذه الأمور مجموعة من الأحكام ليقول في ختام ذلك: "وهل السياسة الشرعية إلا من هذا

(١) القرضاوي، يوسف، "السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها"، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٨ م.

(٢) الجوزية، ابن قيم، "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧، ج ٢/٣٧٣.

(٣) عارف، نصر محمد، "في مصادر التراث السياسي الإسلامي"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨١ م.

الباب..^(١).. هكذا تكون السياسة الشرعية التي اشتغل بها رشيد رضا، فهي لا تتبع عن روح المعنى الذي حدده ابن القيم وغيره من أئمة الإسلام، غير أن شكلها ومظهرها يختلف باختلاف أفضيتها في جريان العصور، وكانت مشاكل العصر وتفاقم أزماته السياسية سببا في تكوين الفكرة السياسية الشرعية عند رشيد رضا.

٢- رشيد رضا الفقيه السياسي:

من شروط الكلام ب"السياسة الشرعية"، ومن شروط التأليف والتصنيف فيها، وفي القضايا التي تمس واقع الأمة من خلالها أن يكون صاحبها فقيها حق الفقه، وتدلنا المقالات التي كتبها رشيد رضا، وعالج فيها قضايا عامة ومختلفة أنه كان فقيها^(٢) له اطلاع واسع على كتب الفقه وله معرفة جيدة بحقيقة المذاهب الفقهية المتبوعة وغير المتبوعة، وله إلمام واسع بقواعد علم أصول الفقه والمقاصد الشرعية، وكان عالما بكتب الأحكام الفقهية من القرآن والسنة النبوية، كما كان عالما باجتهادات السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم، وقد مكنته هذه المعرفة الواسعة من أن يعمل بـ"الفقه السياسي الشرعي" عملا تصاحبه النظرة العلمية الواعية بأن هذا الفقه أصبح جسدا بلا روح، فجسده قائم في المراجع و المصادر والأصول، لكن روحه ضاعت تماما بسبب تعطيل العمل بالشرعية الإسلامية في الحياة العامة للبلاد الإسلامية، كما أنه كان يعي أن كثيرا من مفكري عصره من القوميين والغربيين يرددون شبهة استشراقية مفضوحة مفادها أن الشريعة الإسلامية إنما استمدت كثيرا من بنودها من القوانين الرومانية، وهذا فيه تضليل للشعوب العربية والإسلامية التي تعاني من الجهل الفظيع بسبب أميتها

(١) إعلام الموقعين، ٣٧٣/٨.

(٢) انظر كتاب "الوحدة الإسلامية والوحدة الدينية"، مجموعة مقالات صدرت في المنار، المجلد الثالث والرابع والسادس، تعالج قضايا عامة في الفقه السياسي الشرعي من ذلك مثلا: أ- محاورات المصلح والمقلد في مسألة الاجتهاد والتقليد والوحدة الإسلامية ب- الأسئلة الباريسية في الاجتهاد والتقليد والشرعية والقانون والمدارس الإسلامية الجامعة. ج- اختلاف الأمة وسيرة الأئمة، ومخالفة الخلف للسلف الصالح في فهم الدين والعمل به، وما يجب أن يكون عليه المسلمون في دينهم وشرعهم. الإصدار الثالث للكتاب، دار المنار، ١٣٦٧هـ.

وبعدها عن الإسلام، وهي بلا شك عون للاستعمار على إحكام علاقة سياسات المسلمين بالسياسات الغربية الوارثة الطبيعية للقوانين الرومانية، فكان لا بد لرشيد رضا أن يدعو علماء الأمة وشبابها إلى الاطلاع على ذخيرتهم الحية في الفقه الإسلامي، ذخيرة توارثوها خلفا عن سلف وهي حجة عليهم في تاريخهم وحضارتهم وواقعهم، يقول محفزا: "أن يعلم من أدلتهم"^(١) ومداركهم ما هو مستند إلى نصوص الكتاب والسنة القطعية أو الظنية، وما مستنده القياس أو الاستنباط من القواعد العامة أو الخاصة بمذهب دون مذهب المصالح عند المالكية وغيرهم والاستحسان عند الحنفية، وبهذا يعلم غلط من زعم أن المسلمين استمدوا أحكام المعاملات من القوانين الرومانية"^(٢)، وكان يقدم كتاب "المغني لابن قدامة" على سائر كتب الفقه جملة، لا يضاهيه في ذلك سوى كتاب "المحلى لابن حزم" الذي كان يعدّ صاحبه مجددا للفقه الإسلامي مثل العز بن عبد السلام"^(٣)، ومع هذه الدرجة التي حظي بها (المحلى) عند رشيد رضا فإن (المغني) حظي بشئاء مطلقة عنده لدرجة أنه قال مرة: "وإذا يسر الله تعالى لكتاب المغني من يطبعه فأنا أموت آمنا على الفقه الإسلامي أن يموت"^(٤)، وقد بسط بين يدي هذا التقديم مبررات علمية كثيرة أهمها أن ابن قدامة لخص مذاهب فقهاء المسلمين المجتهدين بأدلتها من أمهات الأحكام ومهمات المسائل، بعيدا عن التعصب في كل ترجيح، وبعيدا عن تكلف الطعن على أهل الجمود من المقلدين، هذا مع العلم أن المصنف فقيه حنبلي، ومحدث أثري.

لم يكن رشيد رضا متقيدا بمذهب فقهي معين، وإنما كان يجتهد بعمل شخصي، يفتي فيه بالدليل ويسلك فيه سبيل أهل الاجتهاد المطلق، لذلك جاء اجتهاده في مجال

(١) يعني أقوال أئمة السلف وعلماء الأمصار من أصحاب المذاهب المختلفة وأدلتهم، انظر مقدمة "المغني" ص ١٧.

(٢) مقدمة المغني، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠.

(٤) المرجع السابق نفسه.

الأحكام متميزا لا سيما في تفسيره آيات الأحكام في تفسيره المشهور "تفسير المنار"^(١)، وهذه ملاحظات عامة عن اجتهاده في مجال النص:

أ- الفهم الجيد والحافظة القوية.

ب- الخبرة الجيدة بالواقع.

ج- الوعي العقلاني التام بالأحكام الشرعية.

د- المعرفة الجيدة لكيفية تنزيل الأحكام على وقائعها.

هـ- الإدراك التام لطموحات الشعوب الإسلامية.

و- وضوح الرؤية وجودة الأسلوب وبلاغة العبارة.

ز- المد والجزر في الممارسة السياسية.

ح- حسن تمرير الفكرة السياسية عبر العمل الصحافي الملتزم.

وبهذا غدا رحمه الله موسوعة زمانه، ومجتهد عصره، ومجدد قرنه، ولم يحد عن السنة بل سار على طريق السلف في تقرير الحق وتقعيد العلم وخدمة الشريعة الإسلامية.

٣- نقده للتعصب المذهبي:

عرف رشيد رضا بنقده الصارم لمتعصبة المذاهب الفقهية، وقد أعانه على ذلك تتبعه الدقيق للعوامل والأسباب التي أوقعتهم في هذا التعصب، وبدلنا على ذلك سرده لأحداث التعصب وما جنته على الأمة من جمود وتحلف وتمزق، وهو سرد يصاحبه نقد منهجي ومضموني بلغة سهلة وواضحة لكنها من حيث القواعد اللغوية رصينة لا تحترق، يقول^(٢): "ولكن المتعصبين للمذاهب أبوا أن يكون الاختلاف رحمة، وشدد كل منهم في تحميم تقليد مذهبه، وعدم الترخيص للمنتمين إليه في تقليد غيره ولو

(١) هو تفسير القرآن الحكيم المسمى بـ "تفسير المنار" تأليف الشيخ محمد رشيد رضا - طبعته الهيئة المصرية العامة

عام: ١٩٧٣م.

(٢) مقدمة رشيد رضا لكتاب "المغني"، ص ١٢.

لحاجة أو ضرورة، وكان من مناظراتهم في ذلك، ومن طعن بعضهم في بعض ما هو معروف في كتب التاريخ والتراجم وغيرها كإحياء للغزالي^(١)، وهذا مخالف لوحدة الأمة الإسلامية التي أرادها الله أن تكون متكافلة، متعاونة ومتحدة فقال: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ (الأنبياء: ٩٢)، وذم التفرق والتمزق فقال تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ (الأنعام: ١٥٩)، وإذا ما وقع الخلاف -وهو واقع لا محالة- فمردّه إلى الوحي لأنه هو المعين الوحيد على حل الخلاف، قال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ (النساء: ٥٩)، فهذه الآية هي شعار الوحدة، وميزان من يدعو إلى الوحدة، وهي أساس الائتلاف، وقاعدة في درء الاختلاف، يقول رضا: "حقاً إنني على ضعفي وعجزتي حريص على الإصلاح الإسلامي على إطلاقه وعمومه"^(٢)، ولا أخص به أهل مذهب دون غيره، وإنني لست سنيا بمعنى التعصب، بل أنا سني بمعنى أنني مستمسك بما صح من سنة النبي لا أؤثر عليه تقليد أحد"^(٣).

وكان يوازن في نقده بين تعصب الخلف وتساهل السلف الصالح، هؤلاء الذين كان فقهاؤهم يأخذون بما أراده الله من اليسر في الشرع وانتفاء الحرج منه، وكانوا يضعون في سلم الأولويات عدم التفريق بين المسلمين بالظنون الاجتهادية "حتى كان أشهر الأئمة لا يستحلون الجزم بالحكم فيها، فيقول أحدهم: أكره كذا، أو: لا أستحسنه، ويقول في مقابل ذلك: يفعل السائل كذا احتياطاً، أو: أحب كذا، أو: يعجبني، أو: أعجب إلي، أو: هذا أحسن، هكذا كان يقول الإمام أحمد في المسائل الاجتهادية أو فيما لا نص صحيحاً صريحاً فيه من الكتاب أو السنة ويؤثر نحوه عن غيره"^(٤).

(١) الغزالي، أبو حامد، "إحياء علوم الدين"، النور الإسلامية للطبع والنشر، ١٠٥/٢ وما بعدها.

(٢) يريد بذلك الإصلاح السياسي الشرعي كما بيناه من قبل، انظر مقدمة هذا البحث.

(٣) مجلة "النار" مجلد ٢٣، ص: ٧٦٦. وانظر درنيقة، أحمد محمد، ص: ١٥٦.

(٤) مقدمة المغني، ص: ١٣.

وقد لا حظ رشيد رضا أن مدونة المذاهب جعلوا من كل هذه الاحتياطات قواعد لهم في تشريع الأحكام، ومع توالي الزمن خرج إلى الوجود فرق مستقلة في الفروع صارت فيما بعد -مع متكلمة المذاهب- فرق مستقلة في العقائد أيضاً، وهذا كله بعيد عن وضع اجتهاد الأئمة، فالأئمة الكبار من أمثال أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفارسي (٨٠ هـ / ١٥٠ هـ)^(١)، ومالك بن أنس الأصبحي (١٧٩/٩٥ هـ)^(٢)، ومحمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤/١٥٠ هـ)^(٣)، والإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١/١٦٤ هـ)^(٤)، إنما كانوا أئمة لجميع المسلمين، وذلك بتمسكهم بأصول الدين، وأخذهم للأحكام الشرعية بمأخذ الفهم من نصوص الكتاب والسنة، وما صح عن الصحابة، أما ما فعله تلامذتهم وأصحابهم من جمع لاستنباطاتهم واجتهاداتهم فهو صيانة من الضياع، وهو مهم في فتح أبواب العلم، وتسهيله لطلبة العلم لا أن يجمدوا عليه، يقول أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني^(٥)، "اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، ومن معنى قوله لأقر به على من أراده مع إعلامه فيه عن تقليده وتقليد غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط لنفسه"^(٦).

(١) ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٣/ (٢١٣ - ٤٥٤) رقم الترجمة ٧٢٩٧٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ترجمته في طبقات المالكية المسمى "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" لمحمد بن مخلوف، ٥٢/١ وما بعدها، دار الفكر.

(٣) ترجمته في "تاريخ بغداد"، ٥٦/٢ وما بعدها ترجمة رقم: ٤٥٤، و"طبقات الشافعية"، لأبي بكر هداية الله الحسيني ص: ١١-١٢، تحقيق عامل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ م.

(٤) ترجمته في "تاريخ بغداد"، ٤/ (٤١٢ - ٤٢٣) رقم الترجمة ٢٣١٧.

(٥) مصري، من أصحاب الإمام الشافعي، اختصر كتاب الإمام الشافعي وهو المشهور بمختصر المزني، ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفي سنة ٢٦٤ هـ له ترجمة في كتاب "تاريخ التشريع" للخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٩٨٨ م، ص ١٧٣.

(٦) مختصر المزني، المقدمة، دار المعرفة، بيروت لبنان.

إن الجمود على رأي الإمام واجتهاده وحده يجعل منه شارعا أو كالشارع، وهذا فيه ما فيه من مخالفة الشرع، ومن افتراق الطوائف المقلدة التي تتباين وتتعدى وتختلف وتتناقض، وقد اختلف المسلمون في أمور الشريعة اختلافات كثيرة، وتباينت آراؤهم، وتعددت مشاربهم وتناقضت أحوالهم، وقد أفضى هذا الاختلاف إلى ظاهرة التكفير والتفسيق والتدجيل، وهي ظاهرة - وللأسف الشديد - سرت في صفوف الدعاة والعاملين في الإصلاح، حيث تبادلوا التهم التي كان علماء الأمة لا يطلقونها إلا في حق الفساد والفجار والمنافقين، ووصية رشيد رضا إلى هؤلاء هي أن يستلهموا من علماء الأمة ومجتهديها قوة علمهم وحسن فهمهم، ويتركوا تعصب المذاهب الفقهية التي ظهرت بعد موت الأئمة، تعصباً تعددت آفاته ولعل أكبرها وأخطرها التفرق المذموم والتشتت المبغوض، فالاختلاف في الصف هو اختلاف في الظواهر ولكنه يسري إلى الباطن فيغيره، فتنبثق من الداخل قناعات راسخة تصبح على مر الزمان قاعدة يبنى عليها عمل شاذ. وقدم رشيد رضا الدليل على ذلك من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه^(١) مرفوعاً: "لتسوون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم"^(٢)، والمخالفة بين الوجوه شرحها الإمام النووي^(٣)، بأن الله يوقع بين المخالفين العداوة والبغضاء ومخالفة القلوب^(٤)، وإذا اختلف القلب اختلف كل شيء^(٥)، وللحديث

(١) صحابي وابن صحابي، خزرجي أنصاري، مات سنة ٦٥هـ، له ترجمة في "تقريب التهذيب"، للحافظ ابن

حجر، مؤسسة الرسالة - الأولى عام: ١٩٩٦م، ص: ٤٩٤، رقم: ٧١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب "الأذان" - باب: "تسوية الصفوف عند الإقامة" - فتح الباري: ٢٠٦/٢ -

٢٠٧ - رقم الحديث ٧١٧ - طبعة دار الفكر، تحقيق الشيخ ابن باز. وأخرجه مسلم في صحيحه - كتاب

الصلاة - باب تسوية الصفوف وإقامتها، مطبعة دار إحياء الكتب العربية - بعناية محمد فؤاد عبد الباقي،

٣٢٤/١، رقم الحديث ٤٣٦.

(٣) الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دمشقي ولد سنة ٦٣١هـ وكانت وفاته عام ٦٧٦هـ، أخرجت

له ترجمة جيدة في مقدمة رياض الصالحين الصادرة عن دار القبلة في جدة وعن مؤسسة علوم القرآن ببيروت -

الأولى سنة: ١٩٩٠م.

(٤) استفيد هذا التعليق من هامش رقم (١٠) في صفحة ٣٢٤ من صحيح مسلم.

شاهد آخر عند أبي داود بلفظ: "والله لتقيم صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم"^(٢)، وفي حديث آخر: "لا تختلفوا فتختلف قلوبكم"^(٣)، والمعنى الذي جاء في الحديث مؤيد من وجوه كثيرة، منها ما بينه رشيد رضا بقوله: "ويؤيد المعنى من المعقول والتجارب ما ثبت من الاتفاق في العادات واللباس من أسباب التآلف، والاختلاف فيها من أسباب التنافر فكيف إذا كان الخلاف في الدين، وكان كل فريق يعتقد أن الآخر مخالف بمخالفة الله ولرسوله بدعواه أن ما عليه أهل مذهبه هو الحق، وما خالفهم فيه غيرهم باطل"^(٤).

ولما كان التفرق سببا في ذهاب سلطة الأمة، وسببا في إضعافها بين الأمم، وسببا في تمكين الأجانب من الاستيلاء على البلاد والعباد كانت النصيحة التي يقدمها رضا هي: "وجوب تلافي شرور هذا التفرق، وجمع الكلمة ووحدة الأمة، وكان هذا الغرض من أهم ما أنشأنا لأجله مجلتنا "المنار"، وأول ما كتبناه من التفصيل في ذلك "محاورات المصلح والمقلد" التي نشرت في المجلدين ٣ و ٤ أي من أكثر من ربع قرن، ثم جمعت في كتاب مستقل منذ بضع عشرة سنة"^(٥)، وهذا الفعل من الشيخ رضا إنما يأتي من منطلق إيمانه أن الدعاة إلى الله والعاملين في الإصلاح العام بقدر ما مالوا إلى التيسير بقدر ما ساهموا في جمع الشمل ولم الصف، وبقدر ما تشددوا وتعسروا بقدر ما شقوا مع الأمة التي يعاني أهلها من الجهل الفظيع والتخلف المريب، وفي القرآن والسنة نصوص ذات أحكام شرعية تشهد لهذه الدعوى منها قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله

(١) قياسا على حديث آخر للنعمان بن بشير مرفوعا: (إلا وإن في الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله

وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)، أخرجه البخاري في الإيمان، أنظر فتح الباري ١/١٢٦

رقم ٥٢، وأخرج الإمام مسلم في صحيحه "كتاب المساقاة"، ٣/١٢١٩-١٢٢٠، رقم الحديث ١٥٩٩.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن من حديث النعمان بن بشير أيضاً، أنظر كتاب "الصلاة"، باب "تسوية الصفوف"،

تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية لبنان، والحديث صحيح، ١/١٢٨ رقم ٦٦٢.

(٣) المصدر السابق، حديث للبراء بن عازب مرفوعاً، رقم الحديث: ٦٦٤ وهو حديث صحيح أيضاً.

(٤) مقدمة "المعني" ص: ١٦.

(٥) المرجع السابق، وهو يريد بذلك كتاب: "الوحدة الإسلامية والوحدة الدينية"، سبقت الإشارة إليه.

لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وفي حديث أبي موسى الأشعري^(١) مرفوعا: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"^(٢)، وفي حديث أبي هريرة^(٣) مرفوعا: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا"^(٤)، وهذا كله لغرض واحد كان الشيخ يريد كشفه للناس وبيانه لهم وهو الذي يقول فيه: "وإنما غرضنا هنا أن نبين أن يسر الشريعة وحكمة التشريع"^(٥)، وكون الاجتهاد رحمة للأمة إنما يعرف من مجموع كلام المجتهدين، ويفوت من قصر نظره على مذهب واحد من مذاهبهم، وأن طلاب الإصلاح للأمة الإسلامية ما زالوا يقترحون تأليف جمعية من علماء المذاهب المتبعة كلها، تضع للأمة كتبا في العبادات والمعاملات تؤخذ من نصوص الكتاب والسنة، ومن اجتهاد جميع المجتهدين، يراعى فيها اليسر ورفع الحرج ودرء المفاسد ومراعاة العرف، وغير ذلك من القواعد"^(٦).

٤ - دعوته إلى وحدة المذهبيين: السني والشيعة:

الدعوة إلى الوحدة هي دعوة عامة عند رضا، والوحدة في دعوته هي شاملة، فبقدر ما دعى إلى وحدة المذاهب الفقهية عند أهل السنة دعى إلى الوحدة بين المذهبيين السني والشيعة، غير أن الدعوة لم تكن تتغاضى عيوب المذهبيين ولا تحجب عنه رؤية البدع

(١) عبد الله بن قيس بن سليم، صحابي مشهور، أمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين، مات سنة:

٥٠هـ، وقيل بعدها، ترجمته في "تقريب التهذيب" ص: ٢٦٠. رقم: ٣٥٤٢.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد - باب الأمر باليسير وترك التنفير - ١٣٥٨/٣ رقم الحديث: ١٧٣٢.

(٣) الدوسي، صحابي جليل، اختلف في اسمه واسم أبيه، مات سنة سبع، وقيل ثمان وقيل تسع وخمسين، وهو ابن

ثمان وسبعين سنة، انظر التقريب، ص ٥٩٩-٦٠٠ رقم ٨٤٢٦.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر، ٩٣/١ رقم الحديث: ٣٩.

(٥) أعتقد أنه لهذا الغرض ألف كتابه: "يسر الإسلام وأصول التشريع العام"، أبان فيه على مقدرة عالية في الإلمام

بعلم أصول الفقه وقواعده التشريعية ومصطلحاته الفنية، كما تفنن فيه بالأسلوب الفقهي الذي يعالج القضايا

الفقهية العامة على طريقة أهل الفقه الكبار. الكتاب نشره المؤتمر الإسلامي، طبع بمطبعة نمضة مصر،

ط ٢، ١٩٥٦م.

(٦) مقدمة المغني، ص: ٢٣.

والمنكرات الواقعة فيهما، فقد نال المذهب الشيعي من نقده ما نال مذهب أهل السنة، ومن خلال النقد كان يبين أن طقوس المذهبيين إنما تزيد في الفرقة وفي التششت، وأن اجتهادات مجتهدي أصحاب المذهبين لا تساهم في الوحدة، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْراً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، وعيد لمن فرق الدين بأي شكل من الأشكال، ولما كانت الوحدة من الفروض المطلوبة شرعاً اهتم بها اهتماماً بالغاً، وقد شكل موضوع الوحدة بين السنة والشيعية حيزاً كبيراً من جهده وعمره فقد جاهد في سبيل ذلك أكثر من ثلث قرن كما ذكر ذلك بنفسه^(١)، ومهما كان الخلاف طاعياً ومتأسلاً تاريخياً فإن قاعدة رشيد رضا في الوحدة هي قوله: "أن نتعاون على ما تنفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه"^(٢)، ويخاطب السنة والشيعية جميعاً فيدعوهم إلى ضرورة التوحد بعبارة جامعة مانعة يقول فيها: "إذا كنا لسنا في حاجة إلى الانتقام، وإذا كنا قد ذقنا فعرنا جناية سل الحسام، وإذا كنا مهددين في كل أرض لأن ديننا الإسلام، وإذا كنا - كما نعلم - على خطر لا ينجلي منه إلا الاتحاد والالتام، وإذا كان هذا الاتحاد متعذراً من جهة وحدة السلطة والأحكام، أفلا يجب علينا أن نتلمسه من جهة الوحدة الدينية في العقائد المتفق عليها، والأخلاق التي لا خلاف فيها، والأخوة التي دعانا القرآن إليها، أفلا ينبغي أن نأخذ هذه المواسم مذكرات بأفضل ما كان من سلفنا، وأنفع ما كان أئمتنا، ونجتهد في أن نجعل شعورنا واحداً حتى يصدق علينا قول نبينا ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"^(٣) (١).

(١) انظر مقدمة "المغني"، ص: ١٦.

(٢) "النار"، مج ١، ص ٧٩٢. وهذه القاعدة استعار معناها من الإمام الغزالي في: "القسطاس المستقيم"، يقول فيها: الاكتفاء بالعمل المجمع عليه، وعد المسائل الظنية فيها كأن لم تكن"، انظر مقدمة المغني، ص ١٦، وهي قاعدة لو عمل بها لأعطت خيراً كثيراً.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث النعمان بن بشير في كتاب "الأدب"، ٤٣٨/١٠ رقم ٦٠١١.

المبحث الخامس - شمولية الإصلاح السياسي عند الشيخ رضا:

كلمة الإصلاح التي نتكلم عنها هي كلمة عامة وشاملة، فهي لا تنحصر في جزئية من جزئيات الحياة، ولا في مكون من مكونات المجتمع، والسعي بها في الحياة يقتضي إصلاح المؤسسات الفكرية والاجتماعية من هنا تنبثق النظرة الإصلاحية للرجل. وإذا أردنا فهم الإصلاح لديه وجب استحضار الأزمة العامة والمشاكل الشاملة التي خيمت بكلكلها على العالم الإسلامي برمته، وقد ساهم أولئك الأعلام -ومنهم رضا- في التخفيف من حدة وطأة المشاكل والأزمات التي بلغت حدتها الغاية وذلك بتشخيصهم لها، واقتراح حلول لمعالجتها، ولم لا، فقد ساهموا في إزالة بعضها، وأعتقد أنه لولا جهودهم الموفقة لكانت الأزمات والمشاكل أكبر بكثير مما هي عليه اليوم، فهم وقفوا وراء صيحات التحرر، وتحقيق الانفصال عن الحكومة الاتحادية في تركيا، وطرد الاستعمار من ديار المسلمين، بل يكفيهم فخرا أنهم يقفون وراء موجة الصحة الإسلامية التي نعم العالم الإسلامي اليوم، ذلك أنهم كانوا لا يعملون لأنفسهم ولا لأوطانهم بل كانوا يمسون الكيان الإسلامي برمته، والضمير الإسلامي الحي أينما كان، ونظن أن سبب فشل تجارب المعاصرين في مجال الإصلاح السياسي إنما يكمن في عدم استقراء التجارب المماثلة، والجهود السابقة فكثير من الآراء التي جاء بها رشيد رضا هي في حاجة إلى بحث وتفصيل على المستوى السياسي، ذلك أن أفكاره في مجال الإصلاح تبدو صالحة للتعامل مع كثير من مشاكل هذا العصر، نذكر منها مثلاً:

- أ- تحرير العقل من الأوهام والخرافات والشعوذة، وتنويره بالفكر العلمي والتقدمي.
- ب- محاربة الشرك وعبادة الأوثان والقبور بالدعوة إلى التوحيد والربوبية الحققة.
- ج- محاربة الجُمود والتقليد والكسل وذلك بتفعيل الاجتهاد والفهم السليم للنص.
- د- مناهضة الظلم والاستبداد والقهر بالعدل والشورى والتسامح.

هـ- الدعوة إلى العلم والتقنية الاختبارية، وإشاعة روحها في المجتمع الإسلامي.

و- الدعوة إلى الصناعة الفاعلة، والتجارة الرابحة، والفلاحة الناجحة.

ز- إصلاح كل أمراض المجتمع التي تفتك به فتكا كالرشوة والزنا والقمار والربا والانتهازية..

ط- محاربة الاستعمار بمختلف أشكاله، وبث الوعي السياسي الشرعي في الأمة في الأمة.

كل هذه دعوات ومطالب كان رشيد رضا يتحرك في إطارها وما لم نذكره بالاسم هو يدخل في العموم.

إن الإصلاح الذي يريده رضا هو الإصلاح السياسي الذي يتم بالإسلام وفي الإسلام، وقد يعتقد البعض أن أحسن إصلاح هو الإصلاح الذي يكون على حساب الشريعة الإسلامية، وذلك حين يجمعون بينها وبين ما خالفها من القوانين الوضعية والأحكام العلمانية، فالشريعة في نظره تحوي أصولا جامعة، صالحة لأي إنسان كان في أي زمان ومكان، وجاءت لتعق الإنسان من العبودية والظلم، وتحرره من الخرافات والأوهام والشرك. وبما أنها آخر الشرائع السماوية على الإطلاق فإنه لا يقبل من أي كان أن يبلغ شيئا باسم الوحي، فيشرع تحريما وتحليلا باسم الدين، والحكومة التي تنشأ في المجتمع الإسلامي والتي تسهر على مصالح المسلمين إنما هي حكومة مقيدة بالأحكام الشرعية التي تضبط العدل والشورى، وليس لأي كان أن يستبد بالتفسير والتحليل باسم السلطة الدينية الروحية، فليست في الإسلام سلطة دينية روحية، إنما تستنبط الأحكام بالعلم والفهم وفي استقلالية تامة، وهي تتأتى لكل من أنس من نفسه قدرة على الاستنباط وتحلى بالشروط التي قررها أهل هذا العلم لهذا الغرض، لذلك فالعلماء المجتهدون سواسية في جميع أحكام الشرع، وإنما يتفاضلون بتفاوتهم العلمي والعمل، ويتفقون جميعا

على أن الأحكام السياسية والمدنية إنما تستند على قاعدة: درء المفساد وحفظ المصالح والحرص على الضرورات الخمس التي أقرها أهل الأصول والفقه والمقاصد^(١).

المبحث السادس - السياسة العامة عند رضا:

نظر رشيد في الصفحة السياسية العالمية والمحلية من منظور الشريعة الإسلامية، فانتصر للحق ودعى إلى الوحدة الإسلامية ورد على الظالمين والمستبدين والملحدين، وأبدع في الممارسة السياسية الإسلامية بخاصية التوازن في العمل السياسي، ومن منطلق نظريته المتوازنة التي أكسبته تماسكا في اتخاذ الموقف سنسلط الضوء على بعض مواقفه من السياسة العامة، وذلك بتقسيمها إلى سياستين: خارجية وداخلية.

أ- موازنته في مجال السياسة الخارجية: وقف رشيد رضا -وهو يعالج القضايا السياسية الخارجية- أمام كتلتين: إحداهما قائمة، صامدة لكنها تعيش مخاضا من الداخل، والثانية تبدت كقوة جديدة، هاجمة، تريد ابتلاع الأولى وانتزاع السيادة منها، فالأولى هي قوة الدولة العثمانية والثانية هي القوى الغربية. فماذا هو موقفه منهما؟

لا يمكننا الحديث عن موقف واحد موحد في مجال السياسة، لأن عالم السياسة عالم متغير، والطبيعي أن تتغير المواقف وتبدل الأقوال، ولقد حاول بعض الباحثين أن يحكموا على الشيخ بالتناقض والاضطراب وهم يعلمون جيدا أن بين القولين الموصوفين "التناقض" فسحة من الزمن، وهذه الفسحة كفيلة بأن تتغير فيها أشياء كثيرة، ففي ٣٠ كانون الثاني من عام ١٩٢٣م كتب رشيد رضا رسالة إلى أمير البيان شكيب أرسلان^(٢)، يذكر له فيها أنه يرجح الترك على الإفرنج على سلبياهم في ظلم العرب واحتقارهم والبغاء عليهم، وكان يطلب أن يعود الترك لحكمهم للبلاد العربية

(١) انظر "النار"، مجلد ٢٧، ص ٤٩٧، ٤٩٩.

(٢) ولد سنة (١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م)، وتوفي سنة (١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٦م)، أول من أطلق عليه أمير البيان هو رشيد رضا، راجع الترجمة الجيدة التي أنجزها له خالد فاروق في مقدمة كتابه "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم"، دار البشير، القاهرة، بدون تاريخ.

بدلاً من بقاء الإفرنج فيها^(١)، وهذا الموقف هو الموقف الأصيل لرشيد رضا وهو الموقف الشرعي الذي أصّله بمسوّغات كثيرة منها، أن تواجد الإفرنج في ديار المسلمين هو كارثة حقيقية لهدم الأخلاق والعلم والتربية ومصادرة الشخصية المسلمة، يضاف إلى هذا انعدام التجاوب بين أهل البلد والمستعمرين، وإذا اختار الأتراك فلدواع كثيرة، منها القواسم المشتركة الكبيرة بين العرب والترك، ثم إن حكم الأتراك هو حكم عريق في هذه البلاد ألفه الناس وعاشوا عليه. لكن بعد ثلاث سنوات من تاريخ الرسالة الأولى وبالتحديد سنة ١٩٢٦م كتب رسالة أخرى لشكيب أرسلان يذكر له فيها أنه لم يعد مرتاحاً للحكم التركي، لا سيما بعد أن ظهرت نوايا مصطفى كمال أتاتورك في تثبيت دعائم العلمانية في كل مؤسسات الدولة بعد أن ظهر خطه المعادي للإسلام جهاراً، لقد أعرب في هذه الرسالة السياسية أنه بدأ يرى في التسلط التركي على ديار العرب خطراً هو أشد من خطر الإفرنج^(٢)، وأعتقد أن رشيد رضا وازن بين وقوع نظام الحكم في تركيا تحت السياسة الغربية وبين وقوع بلاد العرب تحت حكم الأتراك حيث في هذه الحالة سيعاني العرب من ظلمين مركبين: ظلم الأتراك وظلم الاستعمار، فكان لا بد من اختيار ضرر واحد هو ضرر الاستعمار وحده، وهو الضرر المرجح، لكن كان أمامه اختيار آخر هو بحث العرب عن أنفسهم، وتكوين دولتهم المستقلة، دولة عربية قوية، قادرة على حكم نفسها بنفسها بعد إجلاء الاستعمار عنها وهذا ما سنراه في حديثنا عن السياسة الداخلية.

ب- موازناته في مجال السياسة الداخلية: السياسة تحتاج إلى الأخلاق لأن الأخلاق تحافظ على التماسك الفكري، وعلى التوازن التام في اتخاذ المواقف من الأحداث الجارية، واعتقد أن رضا كان على هذه الخصال، فقد حافظ على تماسكه الفكري وتوازنه في التعبير عن مواقفه حيال الأحداث، عند ميله إلى حركة سياسية

(١) الشرباصي، أحمد، "رشيد رضا صاحب المنار: عصره وحياته ومصادر ثقافته"، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٠-٤١.

(٢) أرسلان، شكيب، "السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة"، ص ٤٣٥-٤٣٦.

معينة برر هذا الميول، وإذا تخلى عنها ومال إلى ضدها سوّغ ذلك أيضاً، وفي كلتا الحالتين كان يؤصل آراءه بالشرع، ويستخدم القواعد اللازمة في الترجيح والموازنة، فقد وجد نفسه بين حكومتين متصارعتين يراد لواحدة منهما أن تكون لها السيادة على أرض الحجاز، وتمثل الحكومة الإسلامية المرتقبة التي كان ينتظرها بشغف كبير، الأولى هي حكومة الحجاز بزعامة الشريف حسين شريف مكة، والثانية حكومة نجد بزعامة آل سعود، ولم يتمكن رضا من اتخاذ موقف مؤيد أو معارض لما يجري بينهما من خلاف إلا بعد أن سبر وضعيتهما، وتعرف على مقاصدهما وصحة ادعاءاتهما التي من أبرزها: خدمة الإسلام والمسلمين وصيانة الديار المقدسة، وفي المنار نجده ييسر لنفسه وللناس موازنة بين الحركتين يستخلص منها ما يبرر ميوله لإحدى الطائفتين^(١).

ومهما تقلبت الأحداث وتغيرت الظروف فإن رضا كان حاضراً بقلبه وعقله، يصوغ ما يجري بقلمه، يسعى من خلال كتاباته النقدية والتقويمية إلى التأثير في الأحداث، وعوض أن يقف موقفاً متفجعاً كان ينخرط فيها ويوجه ما يراه صائباً وصالحاً للبلاد والعباد، وكان هاجسه السياسي البحث عن الدولة الإسلامية التي تجمع شتات المسلمين، وتحافظ على التوازن في المنطقة.

المبحث السابع- الموضوعات السياسية التي تكلم فيها:

نعني بذلك الموضوعات السياسية التي تكلم فيها من منظور السياسة الشرعية، وقد اخترنا لها ما يلي:

- ١- موضوع الخلافة.
- ٢- موضوع الشورى.
- ٣- موضوع الثورة.
- ٤- موضوع الاشتراكية.

(١) المنار، مج ٢٦، ج ٦/ص (٤٥٤-٤٧٧).

١- موضوع الخلافة:

كتب رشيد رضا في موضوع الخلافة، وأصدر فيها كتاباً بعنوان: "الخلافة أو الإمامة العظمى"^(١)، ومعلوم أن موضوع الخلافة هو من الكلام المحظور تداوله في ذلك العصر لدرجة أنه كان من المواضيع الممنوعة على طلاب الإصلاح من العرب، والسبب أن حكومة الأستانة كانت تراقب كل المطبوعات، وتمنع نشر كل كتاب من كتب الكلام والعقائد والحديث والتفسير التي تذكر فيها قضية الخلافة، حتى أن المطابع كانت تحذف الفصول والأبواب التي تتكلم في الموضوع إن أريد لهذه الكتب أن تروّج في عاصمة الدولة^(٢)، لكن ما شأن رشيد رضا بحكومة الأستانة، فالسلطان عبد الحميد لم يعد له من الأمر شيء إلا الاسم، وأن الأمر قد استتب في يد الاتحاديين، وأن القرار السياسي أصبح قبضة في يدهم. أما الشعب الذي هو في حاجة إلى خطابات سياسية في موضوع الخلافة فهو الشعب العربي، وكان لرشيد رضا منبر خاص يخاطب من خلاله العرب غير أنه كان يعين المجلة بمؤلفات مستقلة تتصل بالموضوع رأساً، منها كتابه "محمد رسول الله"^(٣)، ثم كتابه "أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين"، ثم أرففه بمصنف حول عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والحسن والحسين^(٤).

وتجرد محمد رشيد رضا للتأليف في صدر الإسلام ابتداء من عهد النبي (إلى عهد الحسن والحسين، دليل على أنه وضع يديه على القلب في قضية الخلافة، فالأحداث التي وقعت على عهد رسول الله والخلفاء الراشدين والحسن والحسين هي أمّ أحداث الخلافة الإسلامية، والأزمة التي عاشوا فيها هي الأزمة المفضلة والمباركة في زمن الخلافة الإسلامية، والأمكنة التي عاشوا وماتوا فيها هي الأمكنة المقدسة التي تحظى

(١) درنيقة، محمد أحمد، "السيد محمد رشيد رضا"، ص ٣٢.

(٢) "مختارات سياسية من مجلة المنار"، ص ٢٠٤.

(٣) "محمد رسول الله" كتاب جامع في السيرة والسنة والسرائيا والبعوث والفتوح والشمال والدلائل إلى غير ذلك، يدل على تألق صاحبه في معرفة الفنون الإسلامية الأساسية، ط ١٩٤٩م، دار إحياء الكتب العربية مصر.

(٤) انظر مقدمة كتابه حول أبي بكر الصديق، ص ٣-٤.

باهتمام ورعاية المسلمين، حتى إن حركة الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية إنما ظهرت في الحجاز، أما فتاواهم وأحكامهم واجتهاداتهم وأقضيتهم وما خلفوه للأمة من سنن فهو زاد لكل من يتولى الخلافة أو يعمل باسمها، لكن الحكمة من هذا كله هو تذكير المسلمين بحياة الخلفاء والأبطال السياسيين المخلصين لأحكام الشريعة الإسلامية لتبقى حية في الأسفار والقلوب، وحاول رضا -بقدر ما أوتي من علم وفهم وتدقيق- أن يصور شخصياتهم بصورة جلية واضحة، تبقى حية ماثلة أمامهم في أي عصر، وباعثة لهممهم، وقدوة يحتذي بها الأبناء في حسن البلاء، طلبا للإقدام، ودعوا للتولي والإحجام، رفعة للشأن، و رغبة في الصبر والإخلاص، ذلك أن نشر التوحيد والعقيدة الصحيحة يحتاج إلى التضحيات الجسام. والقضاء على الوثنية والشرك يتطلب العزيمة والهمة، أما نشر العدل والفضل فلا بد لهما من الإيمان الراسخ والوجدان الصافي.

٢- موضوع الشورى:

الشورى هي عصب الحكم، وشريان العدالة في الإسلام، لا يستقيم الحكم إلا بها، لذلك أولاها رشيد رضا أهمية بالغة في مقالاته، ولقد لقيت نظرياته في مجال الشورى قبولا واسعا لاستهدافها محاربة الاستبداد الفردي الذي يسود نظم الحكم في الأقطار العربية التي تعيش تحت ظل الإمبراطورية العثمانية، ومما يدل على أن آراءه في مجال الشورى انتشرت بصورة كبيرة، إقدام الدولة العثمانية على الوقوف ضده متخذة في ذلك إجراءات صارمة، منها:

- منعه من الوصول إلى الأراضي العربية التي كانت خاضعة لحكمها.

- مضايقة إخوة رشيد رضا في القلمون.

- حاول جواسيسها تخريب مكاتب المنار في القاهرة.

وقد استمرت هذه المضايقات على رشيد رضا وأسرته حتى إعلان الدستور عام ١٣٢٦هـ الموافق لعام ١٩٠٨م^(١).

وانخرط رشيد رضا في أول حزب سياسي أسس في مصر اتخذ له اسم حزب الاتحاد الشورى، وكان واحداً من مؤسسيه، والغرض من وجوده فيه هو تبليغ فكرة الشورى إلى الشعب، وتعليمها إياهم، أما انخراطه في الحزب فبدل على محاولة ممارسة السياسة بطريقة شورية، لكن الحزب لم يذهب بعيداً لأنه كان يضم بين جناحيه فرقتين مختلفتين: فرقة من الاستقاليين الذين يطالبون بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية، وفرقة من الاحتاليين الذين يرون بأن الاستقلال إنما ينبغي على مساعدة أجنبية تعلم الشعب الحكم الديموقراطي النيابي وتقوده نحو العدالة، ورضي بهذا الاختلاف والتناقض؛ لأن فكرته كانت ناصعة وواضحة جعلت أكثر نصارى العرب ينسحبون من الحزب^(٢).

ولما ظهرت حركة تركيا الفتاة التي قادتها جمعية الاتحاد والترقي، واتسع صداها في الخارج، وأصبحت لها فروع تابعة، بادر رشيد رضا بتأسيس جمعية تدعى جمعية الشورى العثمانية رداً على علمانياتها وتحللها وإهانتها للعرب والإسلام، وقد مكنته هذه الجمعية من إصدار مقالات في الحكم الاستبدادي المطلق وما جناه على الأمة، ولما بشر الانقلايون بالحياة الدستورية، كتب رشيد رضا مقالات كثيرة يهلهل فيها بالدستور، ويوعد الأمة بغد سياسي أفضل، وألقى خطبا كثيرة في هذا الشأن، موضحاً فيها أن يوم إعلان الدستور هو يوم عيد للأمة، وأنه نعمة من نعم الله على المسلمين، وقد أضفى عليه رضا طابع الشرعية حين قارنه مع نظام الشورى الإسلامي، فالدستور يشبه نظام الشورى لأنه يحمد من نظام الحكم الاستبدادي، ويلغي نظام الحكم المطلق،

(١) "مختارات سياسية من مجلة المنار" ص ١٤-١٥. وانظر درنيقة، محمد أحمد، ص ٣٢.

(٢) "مختارات سياسية من مجلة المنار"، ص ٢٤٦-٢٤٧.

يقول: "إن القوم الذين يرضون أن يستبد بهم حاكم يفعل فيهم ما يشاء، ويحكم بما يريد ينبغي أن يعدوا من الدواب الراعية، والأنعام السائمة"^(١).

ولا يشك رشيد رضا في أن مقاومة الاستبداد وإنشاء المجالس النيابية والسدعوة إلى تحكيم الشورى وحكم العدل إنما هي أمور استفادها أهل مصر من معطيات ثلاثة:

- الأول: الإسلام وشريعته السمحة، فنصوصه وتاريخه حافل بالتجارب والأحكام الحائثة على ذلك.

- الثاني: عالمان جليلان، كان لهما دور كبير في تحريك النظرية السياسية الإسلامية بصفة عامة، ونظام الشورى بصفة خاصة في أنحاء العالم الإسلامي، وهما: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

- الثالث: الاختلاط بالأوروبيين، فلولا الاختلاط بهم لما تنبه المسلمون إلى حالهم، فإذا كان الأفغاني وعبده قد أتيا بما عجزت الأوائل عن الإتيان بمثله فإن الشعوب الإسلامية كلها تنبعت على اختلاف اتجاهاتها إلى خطر الاستبداد عليها، وسوء العاقبة التي تجنى من الحكم المطلق فالاستعمار له دور الموقظ والمنبه من الغفلة العظيمة التي أصابت المسلمين^(٢).

٣- الثورة:

بقدر ما كان جمال الدين الأفغاني (ثورياً) "يرى الثورة هي الوسيلة الأجدى والأفعل لبلوغ الغاية التي حددها كإستراتيجية لشعوب الشرق في ذلك الحين"، وبقدر ما كان محمد عبده (إصلاحياً) "يرى أن التدرج في الإصلاح هو الطريق الأقوم والأضمن في تحقيق هذه الغاية، وأن التربية المستندة إلى الدين بعد تجديده بواسطة المؤسسات التربوية الجديدة وكذلك المؤسسات العتيقة بعد إصلاحها هي السبيل

(١) "مختارات سياسية من مجلة المنار"، ص ٩٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٨-٩٩.

الوحيد لبلوغ غاية الشرق في التحرر الفكري والتحرير السياسي"^(١)، كان رضا يجمع بين الثورة والإصلاح فيما يمكن أن نسميه "الإصلاح الثوري" أو الدعوة إلى "الثورة الإصلاحية" لأن الثورة والإصلاح في نظره أمران متلازمان لا يتحقق الهدف إلا بهما، جاء ذلك نتيجة جمعه بين أسلوب شيخه، ومن جهة أخرى كان واقع المرحلة لا يسمح سوى بالجمع بين هذين الأسلوبين، لأنهما عنصران فاعلان في التغيير السياسي الذي كان رضا يطمح إليه، ومن خلال مقالاته التي مارس في بعضها تحريضات سياسية قوية ضد الاتحاديين الأتراك المستبدين من جهة، وضد ثورة شريف مكة، وضد الاستعمار بكل صوره وأشكاله، وضد القوميين المسيحيين المطالبين بالوصاية الفرنسية أو الإنجليزية أو الأمريكية من جهة أخرى، حيث تظهر ثورته جلية وواضحة، لكنها ليست ثورة جارفة، ساخطة على الوضع سخطا تاما كما كان حالها عند الأفغاني، بل هي ثورة من النوع المستساغ، إنه يثور بالمعالجة الهادئة، وبالتقويم الرصين، وبالإصلاح المتين الذي يدعو إلى تغيير الوضع من حال الظلم إلى حال العدل، ومن حال الاستبداد إلى حال الشورى والديموقراطية، ومن حال التمزق والتشرذم إلى حال الوفاق والاتحاد والتآخي، ومن حال الجهل والتخلف إلى حال العلم والتقدم والمدنية.

ولا بد أن نذكر هنا صلة الثورة بـ "الشعب" حيث نلاحظ أن الأفغاني كان يثق بالجماهير والعامة وحدهم دون غيرهم، لأن هؤلاء -حسب تصوره- هم أداة التغيير، وهم المالكون للقدرات الخارقة والضرورية التي يتوقف عليها قلب الوضع، أما محمد عبده فإنه كان قليل الثقة بالجمهور، ولا يراهن عليه كثيرا في التغيير، لأن عبده يدعو إلى منطق آخر يختلف عن منطق الثورة عند الأفغاني، وذلك من منطلق إصلاحي يركز على الذات المملقية، الذات التي تؤمن بأنها هي المحرك لأحداث التغيير، لذلك أسقط عبده

(١) "الأعمال الكاملة لمحمد عبده، الكتابات السياسية"، تحقيق وتقديم محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٣٧.

من حسابه الجمهور^(١)، ولا سيما في المرحلة الأخيرة التي ترك فيها السياسة، وقد تركها لتلميذه رشيد رضا الذي شرع فيها مباشرة بعد وفاة الأستاذ الإمام.

إن الجمهور الذي تركه عبده هو المجال الذي تحرك فيه رضا، وقد تحرك فيه بطريقة إيجابية وفاعلة بمجلة المنار التي خاطب بها الشعوب قاطبة بلسان العلم والوعي والفهم والثورة والإصلاح والتربية. فالمنار هي مجلة ثورية سياسية اقتصادية ثقافية اجتماعية فكرية وعلمية، وكان الخطاب السياسي هو أبرز خطاب يمكن للمرء أن يتلذذ بشمراته في المنار، خطاب سياسي ثوري على طريقة أهل الفقه الشرعي، يقارب ويسدد، ويوازن ويمهد، إذا ظهر له أن هذه الجهة هي أقرب إلى التأييد والمناصرة فعل، وكان يعدل عن رأي قاله بالأمس إلى رأي رأى صوابه اليوم، وتدلنا خطبه السياسية، على أنه كان في معترك الوقائع السياسية الحساسة، وفي مواقع الثورة والتغيير، مصاحبا للثوار وناصحا وموجها ومرشدا^(٢).

٤ - الاشتراكية:

عاصر رشيد رضا ظهور الثورة الاشتراكية الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧م، وعاش امتداد شعارات هذه الثورة ومبادئها إلى العالم الإسلامي، وبدأت تتكون "قومية عربية اشتراكية" جديدة ترفع لواء الاشتراكية في العالم العربي والإسلامي، وتدين بالولاء لمفاهيم الثورة ولمبادئها، ولم يقتنع رشيد رضا بالضجة النقدية التي أثارت ضد الاشتراكية، وهي الضجة التي قادتها الدول الأوروبية الرأسمالية الخائفة من المد الاشتراكي والشيوعي الذي يعطل مصالحها في المنطقة، وقادتها أيضا كل من الطبقة الأرستقراطية في روسيا الوفية للنظام القيصري المنهار، والطبقة الغنية المتحكمة في السلطة في البلاد العربية، فأدار رشيد رضا وجهه عن كل هذه الاتهامات، وبادر إلى البحث والمطالعة وتقصي حقائق الاشتراكية بنفسه فوقف على حقائق عدة، منها أن

(١) "الأعمال الكاملة لمحمد عبده"، ص ٣٨، ٥١.

(٢) راجع على سبيل المثال "مختارات سياسية من مجلة المنار"، ص ١٣٣ و (٢٣١-٢٣٨).

المبادئ والحقوق التي نادى بها الاشتراكية كثير منها موجود في الشريعة الإسلامية، ولو عاد عقلاء هذا المذهب إلى الإسلام لوقفوا على قضايا كثيرة هي من عين ما يدعون إليه، كما أنهم سيقفون على أمور كثيرة لم تخطر لهم على بال، لأجل ذلك خاض في مناقشة مبادئ الاشتراكية ودعوتها إلى سعادة البشرية، غير أن تحليلاته النظرية للاشتراكية كانت مصحوبة ببند الشريعة الإسلامية، وكانت رؤيته إليها تتم وفق معطيات السياسة الشرعية وأصولها.

إن تطبيق السياسة الاشتراكية أو تطبيق أي مذهب آخر إنما الغرض منه هو تحقيق سعادة الأمة، لكن للأمة مقومات عقدية وروحية ولها تقاليد وأعراف وعادات هي من عين هذه العقيدة، ولن تكتمل سعادتها إلا بسيادة هذه العقيدة المتمثلة في السياسة الشرعية التي جاء بها الإسلام، زد على هذا أن كل ما يمكن أن يتصوره الإنسان من الأمور التي توفر السعادة للإنسان خارج الإسلام هو موجود في الإسلام، وهذا ما اعترف به غير واحد من الغربيين، فقد ذكر رشيد رضا في المنار أن ليون روش -وهو سياسي فرنسي- اعتنق الإسلام لأنه وجدته يدعو إلى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، وذلك في فرضه للزكاة على كل ذي مال حيث أباح للفقراء حق أخذها غصباً إذا رفض الأغنياء دفعها طوعاً^(١).

(١) "المنار"، مج ٧، ص ٥١٩، وانظر درنيقة، محمد أحمد، الإصلاح، ص ٧٣-٨٠.